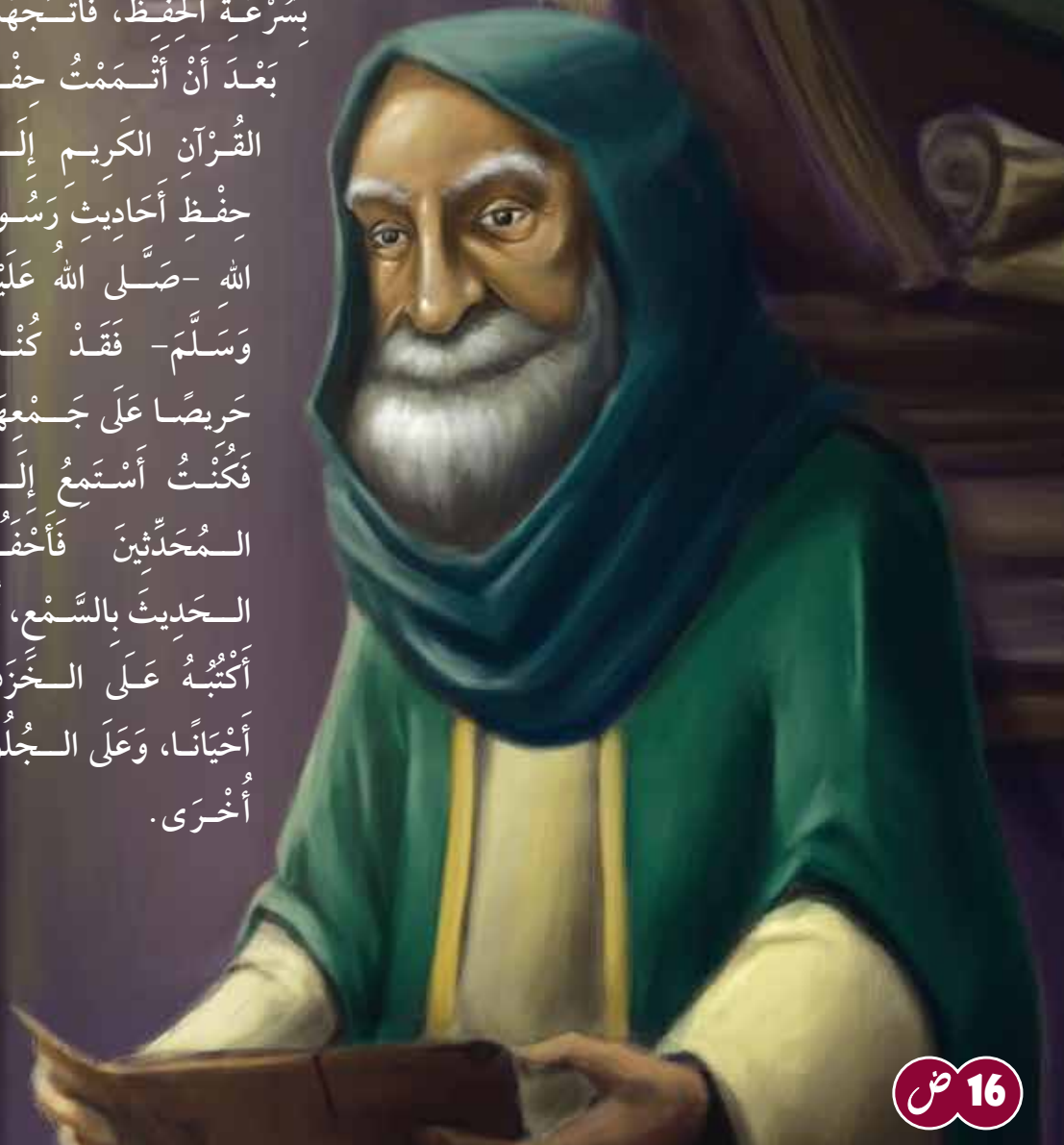


الإمام الشافعي

الفقيه الشاعر الذي حوَّله المحنة من الولاية والسلطان إلى العلم

أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ بْنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عُثْمَانَ بْنِ شَافِعِ بْنِ السَّائِبِ بْنِ عُبَيْدِ بْنِ عَبْدِ يَزِيدِ بْنِ هَاشِمِ بْنِ الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ. عَشْتُ عَيْشَةَ الْيَتَامَى الْفُقَرَاءِ، وَحَفِظْتُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ، وَقَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ بِسُرْعَةِ الْحِفْظِ، فَاتَّجَهْتُ بَعْدَ أَنْ أَتَمَمْتُ حِفْظَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ إِلَى حِفْظِ أَحَادِيثِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَقَدْ كُنْتُ حَرِيصًا عَلَى جَمْعِهَا، فَكُنْتُ أَسْتَمِعُ إِلَى الْمُحَدِّثِينَ فَأَحْفِظُ الْحَدِيثَ بِالسَّمْعِ، ثُمَّ أَكْتُبُهُ عَلَى الْخَزَفِ أَحْيَانًا، وَعَلَى الْجُلُودِ الْآخَرَى.



قَضَيْتُ وَقْتًا طَوِيلًا فِي التَّرْحَالِ وَرَاءَ طَلَبِ الْعِلْمِ، حَتَّى خَرَجْتُ مِنْ مَكَّةَ فَلَا زَمْتُ هُنْدِيًّا بِالْبَادِيَةِ، أَتَعَلَّمُ لُغَتَهَا، وَأَخْذُ طِبَاعَهَا، وَكَانَتْ أَفْصَحَ الْعَرَبِ، أَرْحَلُ بِرَحِيلِهِمْ، وَأَنْزَلُ بِنُزُولِهِمْ، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى مَكَّةَ جَعَلْتُ أَنْشُدُ الْأَشْعَارَ، وَأَذْكَرُ الْأَدَابَ وَالْأَخْبَارَ.

طَلَبْتُ الْعِلْمَ بِمَكَّةَ عَلَى مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْفُقَهَاءِ وَالْمُحَدِّثِينَ، حَتَّى أَذِنَ لِي مُسْلِمُ بْنُ خَالِدِ الرَّزَّحِيِّ بِالْفَيْئَا، وَقَالَ لِي: أَفْتِ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، فَقَدْ أَنْ لَكَ أَنْ تُفْتِيَ.

وَكَانَ ذَلِكَ فِي وَقْتِ انْتِشَارِ اسْمِ مَالِكٍ فِي الْأَفَاقِ، وَتَنَاقُلِهِ الرُّجْبَانَ، وَبَلَغَ شَأْوًا مِنَ الْعِلْمِ وَالْحَدِيثِ بَعِيدًا، فَسَمَتُ هَمْتِي إِلَى الْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ، وَلَكِنِّي لَمْ أَشَأْ أَنْ أَذْهَبَ إِلَى الْمَدِينَةِ خَالِي الْوَفَاضِ مِنْ عِلْمِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَاسْتَعَرْتُ الْمُوْطَأَ مِنْ رَجُلٍ بِمَكَّةَ وَحَفِظْتُهُ، ثُمَّ ذَهَبْتُ إِلَى مَالِكٍ أَهْمِلُ مَعِيَ كِتَابَ تَوْصِيَةِ مَنْ وَالِي مَكَّةَ، وَبِهِذِهِ الْهَجْرَةَ أَخَذْتُ حَيَاتِي تَتَّجِهُ إِلَى الْفَقْهِ بِجُمْلَتِهَا، وَلَمَّا رَأَيْتُ مَالِكًا - وَكَانَتْ لَهُ فِرَاسَةٌ - قَالَ لِي: يَا مُحَمَّدُ! اتَّقِ اللَّهَ، وَاجْتَنِبِ الْمَعَاصِيَ، فَإِنَّهُ سَيَكُونُ لَكَ شَأْنٌ مِنَ الشَّأْنِ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَلْقَى عَلَى قَلْبِكَ نُورًا، فَلَا تُطْفِئْهُ بِالْمَعْصِيَةِ.

ثُمَّ قَالَ لِي: إِذَا مَا جَاءَ الْغَدُ تَأْتِنِي، فَغَدَوْتُ عَلَيْهِ وَابْتَدَأْتُ أَقْرَأُ ظَاهِرًا وَالْكِتَابَ فِي يَدَيَّ، فَكَلِمًا تَهَيَّبَتْ مَالِكًا وَأَرَدْتُ أَنْ أَقْطَعَ، أَعْجَبَهُ حُسْنُ قِرَاءَتِي وَإِعْرَابِي، فَيَقُولُ: يَا فَتَى زِدْ، حَتَّى قَرَأْتُهُ عَلَيْهِ فِي أَيَّامِ بَسِيرَةٍ.

وَلَمَّا مَاتَ مَالِكٌ، اتَّجَهْتُ نَفْسِي إِلَى عَمَلِ

أَكْتَسَبُ مِنْهُ مَا يَدْفَعُ حَاجَتِي وَيَمْنَعُ خِصَاصَتِي، وَصَادَفَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ أَنْ قَدِمَ إِلَى الْحِجَازِ وَالِي الْيَمَنِ، فَكَلَّمَهُ بَعْضُ الْقُرَشِيِّينَ فِي أَنْ أَصْحَبَهُ، فَأَخَذَنِي مَعَهُ، وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَ أُمِّي مَا تُعْطِينِي أَسْمُولًا بِهِ، فَرَهَنْتُ دَارًا، فَتَحَمَلْتُ مَعَهُ، فَلَمَّا قَدِمْنَا الْيَمَنَ عَمِلْتُ لَهُ عَلَى عَمَلٍ.

وَلَيْتُ نَجْرَانَ وَبِهَا بَنُو الْحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمَدَانَ، وَمَوَالِي ثَيْفِ، وَكَانَ الْوَالِي إِذَا أَنَا هُمْ صَانِعُوهُ، فَأَرَادُونِي عَلَى نَحْوِ ذَلِكَ فَلَمْ يَجِدُوا عِنْدِي مُبْتَغَاهُمْ، ثُمَّ أَتَمَّتْ بَأَنِّي مَعَ الْعَلَوِيَّةِ، فَأَرْسَلَ الرَّشِيدُ أَنْ يَحْضُرَ التَّمْرُ الشَّعْةَ الْعَلَوِيَّةَ - وَكَانُوا قَدْ خَرَجُوا عَلَى الرَّشِيدِ - وَأَنَا مَعَهُمْ، فَفَقِلْتُ التَّسْعَةَ، وَنَجَوْتُ بِقُوَّةِ حُجَّتِي وَشَهَادَةِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ لِي. كَانَ قُدُومِي بَغْدَادَ فِي هَذِهِ الْمِحْنَةِ سَنَةَ (184 هـ) أَيُّ وَأَنَا فِي الرَّابِعَةِ وَالثَّلَاثِينَ مِنْ عُمْرِي، وَلَعَلَّ هَذِهِ الْمِحْنَةَ الَّتِي نَزَلَتْ بِي سَاقَهَا اللَّهُ إِلَيَّ لِأَتَّجِهَ إِلَى الْعِلْمِ لِأِلَى الْوَالِيَةِ وَالسُّلْطَانِ. عُدْتُ إِلَى مَكَّةَ لِأَلْقِي الدُّرُوسَ فِي الْحَرَمِ الْمَكِّيِّ، وَأَلْتَقِيَ أَهْلَ الْعِلْمِ فِي مَوْسِمِ الْحَجِّ، وَفِي هَذَا الْأَوَانِ التَّقِيْتُ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ.

ثُمَّ نَزَلْتُ بَغْدَادَ لِلْمَرَّةِ الثَّانِيَةِ سَنَةَ (195 هـ)، وَاللَّفْتُ كِتَابَ «الرَّسَالَةِ» الَّذِي وَضَعْتُ بِهِ الْأَسَاسَ لِعِلْمِ أُصُولِ الْفِقْهِ.

انْتَقَلْتُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مِصْرَ، حَيْثُ قُلْتُ: لَقَدْ أَصْبَحْتُ نَفْسِي تَتَوَقُّ إِلَى مِصْرَ وَمِنْ دُونِهَا أَرْضُ الْمَهَامِهِ وَالْقَفْرِ فَوَاللَّهِ مَا أَدْرِي أَلْفُوزٍ وَالْغِنَى

أَسَاقُ إِلَيْهَا أَمْ أَسَاقُ إِلَى قَبْرِي